تجليات أسلوب النداء
في سورة مريم – عليها السلام –*

د. عبد الرحيم حمدان حمدان**

*تاريخ الاستلام: 2017/11/18م، تاريخ القبول: 2018/1/13م.
** أستاذ مساعد/ غير متفرغ - جامعة القدس المفتوحة / فلسطين.

ملخص:

يستهدف هذا البحث دراسة أسلوب النداء في سورة مريم – عليها السلام– فضلاً عن الكشف عن القيم التعبيرية والتصويرية، ومعرفة توظيف الخطاب القرآني لمثل هذا الأسلوب من الناحية البلاغية والدلالية.

اسْتُخدِمَ في الدراسة المنهج الوصفي التحليلي؛ الأمر الذي استوجب أن تتناول الدراسة مدخلاً يُعالج فيه مفهوم أسلوب النداء، ومنزلته، ووظيفته؛ بوصفه أسلوباً في القصص القرآني في هذه السور، **وقد قسمت الدراسة إلى أربعة محاور على النحو الآتي:**

- أولاً : أسلوب النداء في قصة زكريا، وابنه النبي يحيي– عليهما السلام–
- ثانياً : أسلوب النداء في قصة مريم – عليها السلام–
- ثالثاً : أسلوب النداء في قصة إبراهيم – عليه السلام–
- رابعاً : أسلوب النداء في قصة موسى عليه السلام.

وخلصت الدراسة إلى أن أسلوب النداء يعد وسيلة مهمة من وسائل التشكيل الفني في الخطاب القرآني، وأداة من أدوات التخاطب والتفاهم بين البشر، وأنه يكشف عن جماليات الأسلوب القرآني؛ ويعكس إلى حد ما جوانب من إعجازه.

الكلمات المفتاحية: تجليات، أسلوب النداء، سورة مريم.

The Manifestations of the Vocative Style in Surat Maryam (peace be upon her)

Abstract:

This research aims to study the vocative style in Surat Maryam - peace be upon her - as well as to disclose the expressive and graphic values, and to explore the use of such style by Quran from rhetorical and semantic aspects.

The study used a descriptive analytical approach, which required from the study to take an approach that addresses the concept of the vocative style, its position and its function as a method in the Qur›anic narratives. The study was divided into four core areas as follows:

First - the vocative style in the story of Prophet Zakaria, and his son Yahya - peace be upon them ;

II - The vocative style in the story of Maryam - peace be upon him ;

III - The vocative style in the story of Prophet Ibrahim - peace be upon him;

IV - the vocative style in the story of Prophet Moses peace be upon him.

The study concluded that the vocative style is an important mean to achieve an artistic aspect in the Qur›anic discourse, and it is a tool for achieving communication and understanding between individuals, it also reveals the aesthetics of the Qur›anic style. Moreover, the vocative style is considered an aspect of the Quran's miracle.

***Keywords**: Manifestations, the vocative style, Surat Maryam .*

مقدمة:

يُعدّ أسلوب النداء من أبرز أساليب الخطاب القرآني المعجز، فهو سمة بارزة من سمات العربية، وعلامة مهمة من علاماتها، وتكمن أهمية أسلوب النداء في كونه يمثل ظاهرة أسلوبية تشتمل على عدد من القيم التعبيرية والتصويرية التي وظفها النص القرآني في حنايا السورة؛ لذا آثر الباحث أن يكون موضوع بحثه في رحاب القرآن الكريم العطرة، وأن رغبته ما زالت متقدة لدراسة بلاغة القرآن وبيانه الساحر، وأسرار إعجازه، إلى جانب أنه لم يعثر على أية دراسة علمية– على حد علمه– استقصت موضوع النداء في سورة مريم –عليها السلام –، **وإنما وُجِدت دراسات علمية سابقة تناولت سورة مريم– عليها السلام – بالدرس والتحليل يمكن الإفادة منها في الدراسة الحالية منها:**

دراسة بعنوان: (المستوى البلاغي في سورة مريم)، للباحث فيصل حسين غوادره[1].

دراسة بعنوان: (مستويات أسلوبية في سورة مريم)، للباحث فيصل حسين غوادره[2]

دراسة أخرى بعنوان: (الدلالة النفسية في سورة مريم)، للباحث عقيل عكموش[3]

ودراسة أخيرة موسومة بـ (دراسة أسلوبية في سورة مريم)، معين صالح[4].

المتأمل في هذه الدراسات، يجد أنها لم تخصّ أسلوب النداء في السورة بالدرس والتحليل؛ وإنما جاء النداء فيها عرضاً ضمن محاورها واهتماماتها، ولم يكن مقصوداً لذاته، وكل ما جاء عنه لا يعدو كونه شذرات وإشارات سريعة، ولمحات موجزة، غير شاملة؛ لدرجة أن دراسة الباحث معين رفيق صالح التي تتبعت الظواهر الأسلوبية في سورة مريم – عليها السلام –، لم تتطرق بالإشارة إلى أسلوب النداء، ووظائفه البيانية.

تعددت مصادر البحث ومراجعه وتنوعت، إذ اشتملت على المصادر البلاغية، والنقدية، والنحوية، وكتب التفسير، علاوة على تنوعها ما بين مصادر ومراجع قديمة وحديثة.

لقد وقع اختيار الباحث على سورة مريم – عليها السلام –؛ بوصفها أنموذجاً فريداً لتوظيف أسلوب النداء في النص القرآني؛ ولاحتوائها على ألوان متنوعة من هذا الأسلوب، واشتمالها على إشارات دالة على جمالياته في الخطاب القرآني.

اعتمد الباحث في دراسته على المنهج الوصفي التحليلي؛ لكونه أنسب المناهج لدراسة هذه الظاهرة الأسلوبية وتحليلها، وقد

اقتضت طبيعة البحث أن يشتمل على مقدمة، ومدخل تناول التعريف بالسورة ومقاربة أسلوب النداء، وبيان أهميته بينَ سائر الأساليب البلاغية في العربية.

قسمت الدراسة إلى أربعة محاور، تناول كل محور منها أسلوب النداء في قصة من قصص الأنبياء والرسل التي وردت في سورة مريم – عليها السلام – ، أما الخاتمة، فاشتملت على أهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج.

أولاً ـ مدخل إلى السورة:

أ ـ أسلوب النداء في القرآن:

يشكل أسلوب النداء ظاهرة أسلوبية لغوية، تتمثل فيها المزيد من المعاني البلاغية واللفتات الجمالية البارزة، ويعد أسلوب النداء من أكثر الأساليب التعبيرية دوراناً على ألسنة الناس، وأقلام الكتاب؛ لما تتمتع به البنية الخطابية من قدرة على التعبير عن مختلف الأغراض، والمشاعر الإنسانية.

والنداء أيضاً من أكثر الأساليب اللغوية تحضيراً للأذهان، وتهيئة للنفوس؛ لكي تقبل على ما يوجه إليها من طلب الإصغاء؛ لكونه أسلوباً من أساليب الكلام العربي، ويؤدي وظيفة جمالية؛ وفقاً لمفهوم البلاغة العربية.

شغل أسلوب النداء حيزاً واسعاً في سورة مريم– عليها السلام–؛ لما له من مكانة رفيعة ومنزلة سامية؛ بوصفه أحد أساليب التعبير التي وظفها النص القرآني في خدمة مقاصده وأهدافه.

وتكمن أهمية النداء؛ بوصفه وسيلة مهمة من وسائل الاتصال والتفاهم بين الناس، ويؤدي وظائف غاية في الأهمية: كالتنبيه، والتوكيد، والإيجاز، والتأثير، وهو ملمح من ملامح الإعجاز البلاغي في النص القرآني، والنداء هو الوسيلة الجوهرية، والطريقة المثلى في التعبير عن الغرض حين تقصر الوسائل الأخرى عن إثارة وإيحاء وحركة، إذ يلجأ إليه المنبِّه، والداعي، والشاكي، والمتضجر، والمتعجب، والمتوعد.

1. حقيقة النداء:

النداء هو طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة، ينوب كل حرف منها مناب الفعل أدعو؛ ليصغي المدعو إلى أمر ذي بال[5]. ويرى بعض علماء اللغة أن ثمة تقارباً واضحاً إلى أبعد الحدود بين الدعاء والنداء، وأدخلوا بذلك أسلوب النداء في أسلوب الدعاء»[6]. وقد ورد النداء بمعنى الدعاء في شواهد قرآنية كثيرة، ومن هذه الشواهد ما جاء على لسان زكريا، إذ يقول: ﴿**وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ**﴾ (الأنبياء: 89)، وفي قوله تعالى: ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾ (آل عمران: 38)، فالآيتان كلتاهما تحدثتا عن الدعاء تارة بالفعل (نادى)، وتارة أخرى بالفعل (دعا).

2. عناصر أسلوب النداء:

تتشكل الجملة الندائية القرآنية في الغالب الأعم من أربعة عناصر أساسية هي:

– **الأول**: أداة النداء، يُعدُّ حرف النداء (يا) من أكثر حروف النداء استعمالاً، فهو أصل حروف النداء، وله من الخصائص ما ليس لغيره، ولا يُقدّر عند الحذف سواه، ولا ينادى اسم **الله** – عز وجل– إلا به، ولم يستعمل القرآن الكريم من أدوات النداء غيره[7].

– **الثاني**: المنادي (المرسل).

– **الثالث**: المنادى (المرسل إليه).

– **الرابع**: محتوى النداء ومضمونه: وهي الجملة التي تلي النداء، وغالباً ما تكون أمراً أو نهياً أو استفهاماً أو جملة خبرية طلبية، فكل هذه الأمور ذات بال، يتحتم على المخاطب أن ينتبه عليها، ولذا سبقت بالنداء.

ومن الأمثلة القرآنية التي تتبدى فيها عناصر الجمل الندائية القرآنية جلية بيِّنة قولُهُ تعالى: ﴿**وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**﴾ (هود : 42).

يا: أداة نداء، وقد استعملت وفق دلالتها الأصلية لنداء البعيد؛ (فقد نادى نوح –عليه السلام– ولده الذي كان في معزل عنه مستخدماً أداة النّداء التي للبعيد؛ وفق مقتضى الأصل؛ لأن ابن نوح كان بعيداً بمعزلٍ عن أبيه[8].

المنادِي (المرسل): نبي **الله** نوح – عليه السلام – .

المنادَى (المرسل إليه): وهو أحد أبناء النبي نوح– عليه السلام – ، ويدعى كنعان [9].

مضمون النداء ومحتواه: الأمر بركوب الابن كنعان في السفينة قبل سيرها، وكان في ناحية منها لم يركب مع المؤمنين، والنهي عن أن يهلك ولده نفسه بالغرق، ولا يكون مع الكافرين فيغرق كما يغرقون.

وقد خرج النداء في هذه الجملة الندائية القرآنية عن معناه الأصلي إلى معانٍ بلاغية جديدة تفهم من السياق، وقرائن الأحوال والمقام، وهي الإغراء، ويقصد به: (حث المخاطب على الفعل الطيب، والبعد عن الفعل السيئ)[10].

ويندرج تحت هذا المعنى معانٍ أخرى منها: إبراز مشاعر التودد والشفقة والخوف لدى نوح على مصير ولده، وهذا المقصد الأسلوبي يتسق ومقام الأبوة الصادقة، بما تحمله من دلالة التحنن والتحبب، والرقة، والإشفاق عليه، والحب له، والعناية به، وجاءت صيغة التصغير (بُنَي)؛ لتجسد مشاعر التحنن، والرأفة، والتودد، وتبين صغر سن ابنه.

ب ـ في رحاب السورة:

سورة مريم مكية، آياتها ثمان وتسعون، وهي تُعنى بالمقاصد الأساسية للعقيدة الإسلامية: الوحدانية، والنبوة، والبعث والجزاء، ويدور محورها العام حول التوحيد، والإيمان بوجود **الله** ووحدانيته، وبيان منهج المؤمنين الصالحين، والنعيم الذي يحظون به، والكشف عن منهج الطالحين، والشقاء المقيم الذي ينزل بهم. وصورت السورة أيضا بعض مشاهد يوم القيامة.

أما محورها الخاص، فيدور حول بيان مظاهر رحمة **الله** تعالى بأوليائه: كهبة الولد الصالح ، وتنزيهه – عز وجل – عما لا يليق به؛ رداً على المفترين .

سُمّيت السورة الكريمة بهذا الاسم تخليداً لتلك المرأة التي اصطفاها **الله** وطهّرها على نساء العالمين، يقول المولى – سبحانه

وتعالى- : ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾، (البقرة: 42)، وهي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي سميت باسم أنثى، وهي السيدة الوحيدة التي ذُكرت باسمها صراحة في القرآن، وهي الصديقة الطاهرة أم المسيح- عليهما السلام – وفي كل هذا تكريمٌ وتشريفٌ لها، ورفعٌ من منزلتها، وتعظيم لقدرها في الإسلام.

ورويت هذه التسمية عن النبي – صلى الله عليه وسلم- ، ففي حديث رواه الطبراني وغيره: عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جده أبي مريم، قال: (أتيت النبي – صلى الله عليه وسلم- فقلت: يا رسول الله، إنه ولدت لي الليلة جارية، قال: والليلة أُنزلت عليَّ سورةُ مريم، فسمها مريم، فكان يكنى أبا مريم)[11].

وقد امتازت سورة مريم باشتمالها على عدد من قصص الأنبياء والرسل، وهي السورة الوحيدة التي ابتدأت بالحديث عن القصة القرآنية مباشرة من غير مقدمات[12].

كان القصص هو مادة السورة الأساسية، إذ تنتمي هذه السورة إلى مجموعة من السور المكية التي يهيمن على بنائها الفني الطابع القصصي، إذ اشتملت السورة الكريمة على قصص بعض الأنبياء والرسل التي تدور حول صلتهم الوثيقة بالله تعالى، من طاعة، وحب، وامتثال، وولاء من ناحية، وحول صلاتهم الأسرية بذويِ الأرحام من حب ، وبر من ناحية أخرى، وهي قصص مترابطة متصل بعضها ببعضٍ، متلاحمة الأجزاء، يضمها إطار واحد من حيث المضمون والأسلوب.

ثانيا ـ محاور الدراسة:

ولكي يكون البحث مفيداً ارتأى الباحث أن يرسم الخطوط العريضة لآلية الدرس، والتحليل لأسلوب النداء في سورة مريم- عليها السلام – ببيان أنسب الطرق لمعالجة هذا الأسلوب، وهو أن يدرس كل قصة على حدة من خلال تواجدها في خطاب القصص القرآني التي ورد فيها، ومن ثم محاولة الربط بينها في إطار الجو العام للسورة الكريمة، مع الحرص على دراسة هذه القصص؛ وفق ترتيب ورودها في السورة الكريمة.

المحور الأول: أسلوب النداء في قصة زكريا وابنه النبي يحيى عليهما السلام.

ورد أسلوب النداء في قصة زكريا – عليه السلام- وقصة ابنه يحيى – عليه السلام- في عدد من آيات سورة مريم ، وهي على الترتيب الآتي: يقول سبحانه وتعالى:

﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۞ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (مريم:2، 3).

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾(مريم:4).

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (مريم:5، 6).

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾(مريم:7).

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (مريم:8).

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (مريم:10).

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ، وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (12).

افتتحت سورة مريم المباركة بالحديث عن قصة زكريا – عليه السلام- بمناجاته ربه مبينا ضعفه، ورعاية الله ولطفه عليه، وتعجيل البشرى له، ومواجهة زكريا بالواقع .

فقد بدأت بمشهد الدعاء، دعاء النبي زكريا –عليه السلام- ربه في ضراعة وخفية، يسأله الولد على الشيخوخة والضعف، وعقر امرأته التي لم تنجب منذ أمد، يقول تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۞ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۞ يَا زَكَرِيَّا، إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (مريم:7). (مريم : 4 – 7).

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (سورة مريم:2 – 6).

من يتأمل دعاء النبي زكريا –عليه السلام-، يجد أن المخاطب هو الرب في الملأ الأعلى، وحرف النداء (يا) محذوفة؛ لشعور المنادي سيدنا إبراهيم – عليه السلام – بالقرب من المنادى وهو المولى –عز وجل-، تعظيماً له ولقدرته، وأنه غير غافل عنه، وجاء النداء على صورة مناجاة أي: الدعاء بصوت غير مسموع بعيداً عن أسماع الناس، ومضمون النداء ومحتواه، هو الشكوى إلى الله من ضعف الشيخوخة، والوهن، وطلب الولد.

يبدو أن سيدنا زكريا –عليه السلام- لم يجهر بدعائه ربه؛ وإنما بثَّ نجواه وشكواه إلى ربه بصوت خافت في جوف الليل، لا يسمعه أحد، أو أنه كان يجهر بدعائه في خلوته في مكان ليس بمرأى ولا مسمع عن الناس[13]؛ لأنه راعى سنة الله في إخفاء دعوته؛ لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الإخفاء أولى؛ لأنه أبعد من الرياء، وأدخل في الإخلاص، وعن الحسن: نداء لا رياء فيه، أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في إبان الْكِبرة والشيخوخة، أو أسره من مواليه الذين خافهم، أو خفت صوته لضعفه وهرمه[14].

المتأمل في دعاء سيدنا زكريا –عليه السلام- يتبين أنه لم يبدأ سؤاله مولاه- جل وعلا – أن يهبه الولد؛ وإنما دفعه حياؤه، وتأدبه مع الله، وحسن تلطفه في الطلب إلى أن يمهد لطلبه بتمهيدٍ ذكر فيه أسباب سؤاله الولد.

عرضت قصة زكريا وابنه النبي يحيى – عليهما السلام – في مشاهد تصويرية أربعة هي على الوجه الآتي:

المشهد الأول: مشهد دعاء زكريا ـ عليه السلام – ربه.

قدم زكريا – عليه السلام – بين الدعاء ثلاث مقدمات استنزل بها جميعاً الرحمة، واستدر عطف الله – سبحانه وتعالى- وهي:

1. إظهار حالة الضعف والخشوع قبل طلب الحاجة، فذكر أنه تقدمت به السن، وانتشر الشيب في رأسه، وأنه بلغ من الكبر عتيا،

وأن زوجه عاقر، لم تنجب منذ أمد.

2. أن **الله** لم يرد له دعاء من قبل.

3. كون المطلوب بالدعاء(الرزق بالولد) سبباً للمنفعة في الدين، وبذلك يكون قد استوفى الصورة المثلى للدعاء[15]، وبعد تقرير هذه الأمور الثلاثة صرح نبي **الله** زكريا –عليه السلام– بسؤاله **الله**.

إنَّ من أبرز سمات الجملة الندائية القرآنية في دعاء زكريا – عليه السلام– هو توظيفها التركيب اللغوي (رب) بعد حذف أداة النداء «يا»، فالأصل في التركيب هو (يا ربِّي)، ثم حذفت ياء المتكلم، وتمَّ تعويضها بكسرة؛ لتصبح (ربِّ)؛ ليكون أقرب إلى ربه، وأسرع في النداء، وليدل على استعجاله وتلهفه، فهو يناجي ربه ويناديه في قرب واتصال[16].

وصيغت الجملة الندائية في صورة موجزة مكثفة تجسد حالة النبي زكريا –عليه السلام– الجسمانية والنفسية.

وقد شارك التعبير التصويري المتمثل في الاستعارة في قوله تعالى: ﴿**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾، وفي الصورة الكنائية في قوله تعالى: ﴿**رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي**﴾ في تجسيد ملامح شخصية زكريا –عليه السلام– الجسمية وحالته النفسية.

يلمح المتلقي في الآيات السابقة خروج النداء عن دلالته الأصلية، وهي النداء والتنبيه إلى معانٍ بلاغية جديدة تُستشَف من السياق والمقام الذي وردت فيه من: تضرع وخشوع.

ففي قوله تعالى: ﴿**رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي**﴾ تعبير عن حالة الشيخوخة والضعف، وعدم القوة، وهو يشكو إلى ربه، يعرض عليه حاله ورجاءه؛ إظهاراً للوهن والتحسر، فالدعاء ليس غريباً على النداء، إذ إن أدعية الناس غالباً ما تبدأ بالنداء، والدعاء يُصّدر دائماً بالنداء[17].

د ـ مناداة النبي زكريا مولاه ـ جل وعلا ـ بصفة الربوبية:

فـ(الرب) صفة من صفات الخالق، ولا يقال الرب مطلقاً إلا **لله** تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات، وهي تشي بأكثر من معنى، فلفظة (الرب) تتضمن معنى الملك، فالله وحده هو المسيطر على هذا الكون، وهو المالك له في مقابل عبودية الآخرين له، فالرب هو صاحب الربوبية، وذلك للدلالة على قدرته ووحدانيته المتفردة، ودلالة على الإذعان للربوبية، وأكثر ما تتجلى تلك الربوبية عند الدعاء الذي يعدّ من أبرز المواقف التي تظهر فيها عبودية الإنسان وحاجته أمام خالقه؛ ليصلح له أحواله وشأنه.

ه ـ دلالة تكرار اسم الجلالة (ربِّ) :

ومما تجدر الإشارة إليه أنه لا يمكن دراسة دلالة تكرار هذا الاسم الكريم دون غيره من الأسماء الإلهية العليا مثل: **الله**، الرحمن، إلا اذا تم الكشف عن المعاني التي تختبئ خلفه.

فالرب في اللغة: يطلق على المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والقيم، والمنعم، والمصلح، ورب كل شيء مالكه ومستحقه، وقيل: صاحبه. ويقال: ربى الشيء إذا أصلحه، وربى المعروف، والصنيعة، والنعمة، أي نماها وزادها وأتمها وأصلحها، وربيت الأمر أصلحته ومتنته[18].

ولكون (الرب) مظهراً لجملة من أسماء **الله** المقدسة، لم يرد في القرآن دعاء من عباده إلا مبدوءاً باسم الرب، فالرب مظهر الرحمة والخلق والقدرة والتدبير والحكمة، فهو الشامل لما سواه تعالى، ولعل السر في ذلك هو إفادة هذا اللفظ حالة الانقطاع إلى **الله**.

لقد كان لتكرار (ربِّ) علاقة وثيقة بتأكيد بعض العقائد الإسلامية المهمة، ومن هذه العقائد توحيد **الله**، إن مثل هذا التكرار للفظ «رب» على لسان زكريا – عليه السلام – يفيد زيادة في الضراعة للخالق، ويولد إيقاعاً نغمياً، يسهم في تحقيق جماليات التعبير والتصوير، ويمنحه لوناً من التوازن، والتناسق، والترابط في البنية الفنية العامة للسورة الكريمة، ويعمل على تماسكها وتآزرها.

المشهد الثاني: استجابة الرب لدعاء زكريا ـ عليه السلام ـ .

جاء الرد من المولى الخالق المستجار به في صورة استجابة لدعاء زكريا– عليه السلام – بقوله تعالى: ﴿**يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا**﴾ (مريم : 7).

وَرَدَ النداء الرباني في صورة نداء مباشر باسم النبي زكريا – عليه السلام –، وذلك تشريفاً له، وتكريماً لمقامه عند **الله**، وقد جاءت استجابة المولى لنداء زكريا – عليه السلام –، مباشرة وسريعة لم تتأخر، ومنسجمة مع السياق العام للقصة القرآنية، وقد وردت الاستجابة في نص قرآني في سورة آل عمران ، يقول تعالى: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾ (الأنبياء: 90). **والمتمعن في هذا الرد الإلهي يتبين له ما يأتي**:

أ. اتسم الرد بانتقاء للألفاظ، واختيارها بعناية ودقة متناهية، فلفظه (نبشرك) تُوحي بالبشارة بعد اليأس، والبشارة كذلك تعني الوعد بالعطاء، فضلاً عما تحمله من معاني الفرح والسرور والخير، وهكذا جاءت اللفظة متناسقة تناسقاً رائعاً مع مضمون النداء ومحتواه.

ب. أما لفظ (يحيى) فهو اسم لهذا الغلام الذي سماه المولى– عز وجل – وهو يوحي بالعناية والاهتمام بعبده زكريا، وبالمولود الآتي، إذ لم يُسَمَ أحد قبله بهذا الاسم .

ت. ورد مضمون النداء بصيغة ضمير الجمع للتوكيد (إنا) الذي يُوحي بالمبالغة والتعظيم، وببيان قدرة المولى – عز وجل – وعظمته وعنايته بعباده، وذلك تصديقاً لما جاء في قوله تعالى في موضع من قصة زكريا – عليه السلام: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾(آل عمران: 39).

المشهد الثالث : أثر البشارة في نفس نبي الله زكريا –عليه السلام ـ .

بعد أنْ بُشِّرَ نبي **الله** زكريا –عليه السلام– بالغلام، وتحققت البشارة ، شرع يستعلمُ على وجه التعجب عن وجود الولد. بالتساؤل: ﴿**رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**﴾،(مريم: 8).

المتأمل في تساؤل زكريا – عليه السلام – يجد أن تساؤله يدل على تعجب ودهشة ممزوجة بالفرح والسرور، والبشر، والانفعال، وهو انفعال طبيعي ينسجم مع الطبيعة البشرية ، ويقال في مواقف مفاجئة، ويكشف عن البعد النفسي لسيدنا زكريا –عليه

السلام –ولا يحمل معنى الإنكار، أو الشك في قدرة الله؛ لأن القول بهذا غير جائز في حق الأنبياء – عليهم السلام – [19].

وقد ورد أسلوب النداء على لسان نبي الله زكريا في موضع آخر، إذ يقول المولى – عز وجل– :﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (آل عمران:41).

لمَّا بَشرَّ المولى – عز وجل – النبي زكريا بيحيى – عليه السلام – نبياً من الصالحين، أخذ زكريا يدعو ربه في تضرع وتذلل أن يجعل له آية أو علامة يطمئن بها على حصول الحمل من امرأته بهذا الولد المبشر به، وهو نداء يوحي بلهفة زكريا – عليه السلام – واستعجاله في تعيين موعد حمل زوجه بالولد، ومما يشي باستعجال زكريا – عليه السلام – حذفه أداة النداء (يا)، وحذفه الياء ضمير المتكلم في كلمة (ربي)، ويتجلى في هذا التعبير أيضاً طريقة النص القرآني في تقديم الموضوع الذي يدور الحديثُ عليه، ويتركز محورُ الاهتمام به على غيره من الموضوعات، فقد (قدم زكريا – عليه السلام – الجار والمجرور(لي) المتضمن للضمير العائد عليه على المفعول به (آية) ؛لأن في تقديمه اعتناء بقصته، وإظهاراً لضعف حاله الذي يشعره بحاجته إلى عون الله سبحانه[20]).

وقد استجاب الله تبارك وتعالى دعاءه، وجعل له علامة على وجود الحمل، يقول المولى – عز وجل –: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (مريم:10)، يقول الطبري عن ذلك: (قال زكريّا، يا ربّ إن كان هذا النّداء الّذي ناديته، والصّوت الّذي سمعته صوت ملائكتك، وبشارةً منك لي، فاجعل لي آيةً أي: علامةً أنّ ذلك كذلك؛ ليزول عني ما قد وسوس إليّ الشّيطان، فألقاه في قلبي من أنّ ذلك صوت غير الملائكة، وبشارةٌ من عند غيرك)[21].

ولم يكن موقف نبي الله زَكَرِيّا –عَلَيْه السّلَام – بدعاً بين الرسل والأنبياء، إنّه يريد عَلَامَة وَدَلِيلًا عَلَى وُجُود مَا وَعَدَه مولاه؛ لتَسْتَقرّ نَفْسُهُ وَيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ بِمَا وَعَدَه، كَمَا قَالَ نبي الله إِبْرَاهِيم – عَلَيْه السّلَام– ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَى وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾(البقرة:260).

فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسي الذي كان فيه الدعاء، وكانت فيه الاستجابة، ويؤدي بها حق الشكر لله الذي وهبه على الكبر غلاماً، وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس، ويحيا مع الله ثلاث ليال يلهج لسانه إذا سبح ربه، ويحتبس إذا كلم الناس، وهو سوِيّ معافى في جوارحه، لم يصب لسانه عوج ولا آفة[22].

وقد تكرر هذا الدعاء في سورة آل عمران إذ قال الله تعالى على لسان زكريا–عليه السلام – ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾(آل عمران:41).

لقد كان لتكرار لفظة (ربِّ) أثر في رسم المعالم البارزة للسورة، وتحديد مضامينها، فقد قال سيدنا زكريا – عليه السلام –(رب) في جميع مواضع ندائه ربه، ولم يقل يا (رب)؛ لأنه لم يعد يحتمل التضييع في الكلام، فيأتي بـ (يا)، إنه يريد أن يستعجل في طلبه، فيختصر الكلام ويحذف ما لا حاجة له به؛ ليفرغ إلى مراده.

وقد أشاعت لفظة (ربِّ) المكررة غير مرة أجواء حانية جعلتها تنضح بفيض من أحاسيس الود، والبركة، والفضل من جانب زكريا لربه، وقد خرج النداء في هذا الخطاب القرآني عن دلالته الأصلية التي هي التنبيه والإصغاء إلى معانٍ بلاغية أخرى منها: الدعاء والتذلل والتضرع، والاختصاص، والاسترحام.

ومن جماليات أسلوب النداء في قصة سيدنا زكريا– عليه السلام – التقديمُ المعنوي والجمل الاعتراضية، يقول زكريا – عليه السلام – في دعائه: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (مريم: 4)، وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (مريم: 6).

فالنداء في قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ – رَبِّ – شَقِيًّا﴾، جاء في صورة جملة اعتراضية بين كان واسمها، وبين خبرها، وقد خرج النداء عن معناه الأصلي التنبيه، إلى معانٍ جديدة هي تأكيد الاسترحام، وتأكيد الدعاء، وطلب الرحمة والاستعطاف، فضلاً عن الاختصاص، فأفاد بذلك الخطاب القرآني تقوية، وتحديداً، وتحسيناً.

والمعنى المراد من هذا النص القرآني في تقديمه واعتراضه هو نفي أن يكون زكريا –عليه السلام – قد شقي يوماً، أو خاب سعيه بدعاء الله فيما مضى، وقد صيغ هذا المعنى في صورة كنائية، فهو تعبير كنائي عن أنه كان دوماً سعيداً بدعاء ربه، إذ أطلق نفي الشقاوة ، وأراد حصول ضدها، وهو السعادة وذلك عن طريق الكناية [23]، ويحمل أسلوب الكناية معنىً آخر يرقد تحت المعنى السابق، وهو أسلوب التعريض، إذا يُعرِّض زكريا – عليه السلام – بعبادة قومه للأصنام والأوثان، بإعلانه هذا الرجاء والتوسل والتضرع بين ظهرانيهم، بمعنى أن ربه الذي يعبده يجعله سعيداً لا خائباً بدعائه، وقول لهم: هل تجلب لكم الأصنامُ السعادةَ، وتدفع عنكم الشقاء ؟!

أما دعاؤه في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، فيتجلى فيه الاعتراض إلى جانب التقديم المعنوي، إذ قدم المنادي (رب) على المفعول به الثاني (رضيا)، وهو بذلك يحمل دلالات إيحائية تعبيرية على قرب إحساس زكريا –عليه السلام– من الله، وعلى تلذذه بذكر اسم ربه، ومراعاته للمقام والسياق.

إن اعتراض النداء في الآيتين السابقتين لا يعني زيادته، إنما يؤدي أغراضاً بلاغية دلالية عظيمة يفتقدها السياق القرآني بانعدام وجوده.

أدت النداءات المتكررة (ربِّ) دوراً فاعلاً في الكشف عن أبعاد شخصية النبي زكريا – عليه السلام – وجسّدت ملامحه الجسدية والنفسية، فهو رجل كبير السن، ضعيف العظم والبنية، يسيطر عليه الضعف الجسمي والوهن النفسي، شاب رأسه، لا وارث له، وزوجه عاقر، يخشى الموالي من بعده.

المشهد الرابع: نبوءة يحيى – عليه السلام –

تبدأ قصة النبي يحيى بن زكريا –عليهما السلام– بنداء المولى – عز وجل – للنبي يحيى–عليه السلام– في قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾(مريم:12).

وتجدر الاشارة هنا إلى أن النداء جاء بعد حدوث فجوة في أحداث القصة أي: بين ولادة زكريا ورسالته، فقد حذفت أحداث رئيسة في قصته، وتقديرها: أنه بعد أن كبر يحيى، وترعرع، وبلغ سناً معينة، أي: مرحلة الصبا، وهي مرحلة تطلق على الذكر من الولادة، حتى بلوغ الشباب – ناداه المولى – عز وجل –، وكلّفه

بأعباء النبوة على صغر سنه.

أسهمت الفجوة البلاغية في أحداث قصة يحيى– عليه السلام– في إعطاء قيمة تعبيرية، **وتصويرية للنداء الذي تجلت جمالياته في النواحي الآتية:**

أ. بدأت القصة بنداء النبي يحيى– عليه السلام – مباشرة (يا يحيى) قبل أن يتحدث عنه المولى – عز وجل– بكلمة واحدة، وهذا المشهد يُوحي بمعانٍ عظيمة منها:

ب. إبراز مكانة (يحيى)، ومنزلته عند خالقه ومولاه، واستجابة **الله** لنبيه زكريا – عليه السلام – أن جعل له من ذريته ولياً، يحسن الخلافة بعده في العقيدة.

ت. جاء مضمون النداء ومحتواه في صيغة فعل الأمر (خُذْ) بعد النداء يا يحيي، وهو الأكثر حضوراً في الجمل النائية القرآنية. وقد جاء النداء على هذه الطريقة: ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**﴾(مريم:12) في القرآن الكريم بكثرة؛ (لأن كل ما نادى **الله** به عباده من أوامر ونواه، وعظات وزواجر، ووعد ووعيد، ونحو ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام ومعانٍ ينبغي أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها)[24].

ث. اشتمل مضمون النداء على الأخذ بتعاليم الكتاب (التوراة) بجد واجتهاد، والحث على العلم بالكتاب، والحفظ له، والعمل به، والالتزام بلوازمه.

ج. كشف النداء عن معالم شخصية نبي **الله** يحيى – عليه السلام – كما صَوَّرها النص القرآني، فالنبي يحيى – عليه السلام – تتصف شخصيته بالقوة في الدين، والحكمة، والعلم، والعقل في الصبا، وبالحنان والتقي، فهذه هي المؤهلات التي زوّده **الله** بها، وأعَدّه، وأعانه على احتمال ما كَلَّفهُ **الله** به عندما ناداه[25].

ومما أسهم في إبراز جماليات أسلوب النداء، وقوّى من تأثيره في نفس المتلقي استخدامُ أسلوب الالتفات، وهو ظاهرة أسلوبية شائعة في الخطاب القرآني، وقد توافر في هذه الآية أسلوب الالتفات في الضمائر، إذ انتقل الخطاب من ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب، ومن ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب، فقد عَدَلَ المولى – عزّ وجلّ– عن مخاطبة النبي يحيى– عليه السلام – بقوله:(يا يحيى) إلى الحديث عن ذاته العلية، بأنه هو الذي أعطى (له) أي: ليحيى الحكم صبياً، وقد ورد في كلمة واحدة (آتينا– ه) ضميران مختلفان، الأول للمتكلم، والثاني للغائب وذلك؛ حتى يُظهر للقارئ مفاجأةً في أسلوب الخطاب، وحتى يحدث صدمة للقارئ، أو المتلقي بشكل عام، على أن ما يُكلّف به يحيى– عليه السلام – ليس بالأمر الهين، فهو الحكم والحنان والتقوى، والبر بالوالدين، والبعد عن الظلم والعصيان، كلٌّ هذه الأمور تتطلب هزة نفسية وفكرية بحجم تغيير الضمائر في إحداثها[26].

إن تكرار الألف المدية في خواتيم الآيات:(خفيا، شقيا، رضيا، سميا، عتيا، سويا، صبيا)، قد ولّد نغماً موسيقياً يتساوق مع المضمون المقصود، ويتناسب معه. ففي الفواصل / القافية النغمية بيان لمعاني السورة التي تدور حول فضل المولى – عزّ وجلّ – على زكريا –عليه السلام–، مع شعوره بالإخلاص والطمأنينة، فضلا عن تناسب الفواصل مع الأسلوب القصصي التي وردت فيها.

وفي المشاهد الأربعة يدرك المتلقي أن الوصف، والحوار، والألفاظ الموحية، والمعاني الدينية، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق، قد شاركت جميعها في رسم مشهد النداء بألوانه المتنوعة.

المحور الثاني: أسلوب النداء في قصة مريم ـعليها السلامـ.

ورد النداء في قصة السيدة مريم وولادة ابنها المسيح عليهما السلام في مواضع من سورة مريم على النحو الآتي:

﴿**فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا**﴾ (مريم:23).

﴿**فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا**﴾ (مريم:24).

﴿**فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا**﴾ (مريم: 27).

﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**﴾ (مريم: 28).

كانت السيدة مريم –عليها السلام– صدِّيقة من الصالحات العابدات، تقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صارت مضرب المثل في العبادة والطاعة في بني إسرائيل.

اشتهرت هذه السيدة الجليلة الطاهرة العفيفة بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة. وقد شاءت قدرة **الله** – عزّ وجلّ – أن تحمل مريم بلا زوج، وتنجب ابنها المسيح، وهي بكر عفيفة، ومن المواضع التي ورد أسلوب النداء في قصتها– عليها السلام – قوله تعالى: ﴿**فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا**﴾ (مريم:23).

يتضح من النص القرآني السابق أن السيدة مريم بعد أن أدركت أنها ستُبتلى وتمتحن بهذا المولود عيسى – عليه السلام – تمنّت الموت؛ لأنها عرفت أن الناس لن يصدقوها في خبرها، بعد أن كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عاهرة زانية، ولذلك قالت ما قالت [27].

ويمكن تحليل عناصر الجملة القرآنية على الصورة الاتية:

المنادي: محذوف وتقديره : يا هذه، ليتك متّ قبل هذا، تقصد مريم نفسها، ومثله في القرآن كثير، يقول تعالى على لسان أحد المنافقين على وجه الحسد أو الأسف على فوت الغنيمة مع الشك في الجزاء من **الله**[28]، يقول **الله** تعالى: ﴿**يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ (النساء: 73).

المنادَى: هو مريم العذراء الصِّديقة –عليها السلام – تخاطب نفسها.

حرف النداء : (يا) أداة تنبيه للبعيد.

مضمون النداء ومحتواه: تمني السيدة مريم – عليها السلام – الموت، بسبب الحمل، أو وجع الولادة، وتمنيها أيضاً أن تصبح شيئاً تافهاً، لا يُعرف أو يذكر.

لقد ورد أسلوب النداء في هذه الآية الكريمة على صورة حوار ذاتي، حوار النجوى، أي حوار النفس والذات، وهي في تمنيها تشبه قول عمر بن الخطاب – رضي **الله** عنه –: (كل الناس أعلم منك يا عمر)[29].

لقد خرج النداء عن أصله الحقيقي إلى معانٍ جديدة هي: التحسر، والتوجع، والخوف، وفي هذا تعظيم للأمر، وإفراد له من بين أمور كثيرة ، وذلك يستدعي أن ينبه عليه، ويذكر حرف النداء[30].

هذا الخوف والتحسر الذي عليه الخطاب القرآني يشفُّ بصدق عن الواقع النفسي الذي كانت عليه السيدة مريم –عليها السلام –، ويسهم في صنع المشهد الحواري القصصي في السورة، إذ شَارك الإيقاع النغمي في تصوير النداء ومحتواه، وأدت حروف المدّ: (يا، هذا، منسياً) دوراً مهماً في الإيحاء بالحالة النفسية للسيدة مريم – عليها السلام –، إذ مَنحت هذه الأصوات المتكلمة مساحات واسعةً للتنفيس عن أحاسيسها وآلامها الهائلة، وأدت أصوات التاء المضمومة في(متُّ، كنْتُ) أيضاً دورها في تصوير شدة الألم والتوجع والتأوه، بطريق التمني، وإشهار الحسرة والخوف الذي عانته السيدة مريم – عليها السلام – لحظة ولادة ابنها المسيح – عليه السلام –، وقد جاءت القيم الصوتية في النداء منسجمة مع السياق العام للتعبير عن المعاني الدلالية المراد البوح بها.

كشف أسلوب النداء الذي جاء على صورة مناجاة ذاتية بين السيدة مريم البتول – عليها السلام – وذاتها عن أبعاد شخصية مريم – عليها السلام – وملامحها النفسية، من قلق واضطراب، وخوف وتحسر وتأوه، ونَمَّت هذه المشاعر على خفر الأنثى العذراء وحيائها؛ الأمر الذي أضفى على جو القصة العام مسحة من الصدق الواقعي والصدق الفني معاً.

ويجد المتلقي أيضاً أن ثمة لوناً من التجانس قد تحقق بين كلمة (نسياً) و(منسياً) على مستوى الآية، الواحدة وجاء الجناس هنا من النوع غير التام، وتدل كلتا الكلمتين على النسيان، ولكن دلالة الثانية على النسيان كانت أعمق وأبعد، وزيادة في التأكيد على حدوث عملية النسيان؛ لدرجة أن الناس قد نَسوْها، وليس تناسوها[31].

ويبرز الأثر الاجتماعي جلياً في الخطاب القرآني في هذه الآية، متمثلاً في الخوف من مواجهة المجتمع الذي لا يبيح السّفاح، والمعايرة بالفاحشة التي يتأفف منها المجتمع.

وفي موضع آخر من قصة مريم يرد أسلوب نداء ثانٍ هو قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (مريم: 24).

صيغ هذا النداء بطريقة غير مباشرة، وسيتضح ذلك من خلال تحليل هذا الأسلوب.

المنادِي: على اختلاف الأقوال هو الْمَلَك سيدنا جبريل الروح الأمين – عليه السلام – من أسفل النخلة، أو ابنها الوليد السيد المسيح عيسى بن مريم – عليه السلام.[32].

حرف النداء: محذوف، وتقديره (يا).

المنادَى: جاء في صورة ضمير الغائب المتصل (ها) في قوله تعالى: (وناداها) الذي يعود على السيدة مريم – عليها السلام –.

مضمون النداء ومحتواه: مطالبة السيدة مريم – عليها السلام – بعدم إبداء الحزن والأسى لهذا الأمر، وهو إنجاب المولود، وأن تطيب نفساً به ولا تحزن.

ينفتح هذا النداء على دلالات واسعة غنية، ففيه تطمين لنفس مريم – عليها السلام – ، وتسلية لها، بعدما استبد بها الحزن، لمَّا رأت الأمر قد تحقق، وخالطها الخوف من اطلاع قومها على ما حدث.

لقد جاء النداء في حوار محكيٍّ موجز، يجسد ردة فعل فتاة عذراء على نبأ حملها، وصورةً لأثر الصدمة التي حلَّت بها، فتمنت الموت، ودعت ربها أن تكون نسياً منسياً، كأنها تستنزل العقاب على نفسها، على شيء لم تفعله باختيارها، وهو أقسى ما يتمناه المرء على نفسه، ولاسيما الإنسان المؤمن، وفوق ذلك تتمنى النسيان من تاريخ الوجود، تعبيراً عن هول الحال التي صارت إليها، وهذا كافٍ للتعبير عن وطأة المحنة أو الابتلاء[33].

يريد الله – عزَّ وجلَّ – من وراء هذا النداء أن يخفف من ألم مريم – عليها السلام – وخوفها، ويريد أن يُطمْئن قلبها لما تواجه به أهلها، إنها تواجه آلاماً جسدية بجانب الآلام النفسية، فيطلب منها مَنْ ناداها أن تهز جذع النخلة؛ ليساقط عليها رطباً جنياً، وتأكل وتشرب من الماء وتقر عينها[34].

وفي موضع ثالث، يرسم الخطاب القرآني مشهداً من مشاهد قصة مريم – عليها السلام – مع قومها، لا سيما حين عادت الصِّديقَة إلى قومها، وهي تحمل طفلاً وليداً؛ الأمر الذي جعلهم يستنكرون، ويتعجبون، ويتساءلون عما قامت به مريم – عليها السلام – من فعلة عجيبة غريبة، فقالوا منادين: ﴿**يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا**﴾ (مريم: 27).

يحمل النداء الذي جاء على لسان قوم مريم – عليها السلام – دلالات التعجب والاستنكار والسخرية والتهكم لفعل مريم العذراء البتول.

وفي الموضع الرابع والأخير لأسلوب النداء في قصة مريم – عليها السلام – يلتقي القارئ قوله تعالى على لسان قوم مريم – عليها السلام–: ﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ، مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**﴾، (مريم: 28).

لقد عَرّضَ الموبخون بمريم حين نادَوْها بقولهم: (يا أخت هارون)، ولم ينادوها (يا ابنة عمران)، والأنثى تُنادى باسم أبيها، إذ عادةً ما تُضاف المرآة إلى مَنْ تستمد سلطتها وقيمتها منه. وهارون هو أحد الصالحين، وقيل هو أحد قرابتها، وليس بهارون أخي موسى – عليهما السلام – [35]، والأخوة هنا ليست بمعنى الرحم المباشرة أو القرابة القريبة .

يصور الخطاب القرآني ردة فعل قوم مريم على إنجابها وليداً بلا زوج لها، وواصلوا توجيه اللوم والتقريع والتأنيب لمريم – عليها السلام – قائلين، يا شبيهة هارون في الصلاح والعبادة، وهو نداء ممزوج بالدهشة والتعجب، والاستغراب، والاستنكار، وفي هذه الجملة الندائية القرآنية لون من ألوان التعبير التصويري، وهو التعريض، فضلاً عن أن قصد قوم مريم من وراء ذكرهم لصلاح أبيها، وأمها لم يكن مدحاً لأسرة مريم الطاهرة المعروفة بالصلاح والتقوى: الأب والأم؛ وإنما جاءت في سياق توجيه أقسى أنواع الذم لمريم– عليها السلام –، والطعن في شرفها وعفتها وطهارتها؛ لبيان أن ما أتت به من عمل منكر عظيم لا يليق بها، ويخالف ما عليه أبوها وأمها؛ فَعَنَوا بهذا الكلام التعريض والتعريض: ضرب من ضروب الكناية، وتقصد به أن يطلق الكلام، ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق، أي : أنها: أتت بأمرٍ ليس من شأن أهلها، أي:

(أتت بسوءٍ ليس من شأن أبيها، وبغاء ليس من شأن أمها، وهم بذلك أرادوا ذمّهما، فَأَتَوْا بكلامٍ صَريحُهُ ثناءٌ على أبويها)[36].

وفي الآية القرآنية ثمة أسلوب السخرية اللاذعة والتهكم المر من مريم– عليها السلام –، إذ ثمة فرق بين صورة مريم المتهمة بالزنا والبغاء، وهارون الرجل الصالح التقي الذي تولى الهيكل، هو وذريته من بعده والذي تنتسب إليه بعبادتها، وانقطاعها لخدمة الهيكل.

إنَّ في هذا الخطاب القرآني مفارقة بين تلك النسبة التي تنتسب إليها، وذلك الفعل الذي قارفته؛ حتى تأتي بهذه الفعلة التي لا تأتيها إلا بنات أبناء السوء، والأمهات البغايا.

المحور الثالث: أسلوب النداء في قصة إبراهيم – عليه السلام –

ورد النداء في قصة نبي الله إبراهيم – عليه السلام – في الآيات الآتية:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (إبراهيم:41 – 42).

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (إبراهيم:43).

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (إبراهيم:44).

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾(إبراهيم:45).

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (إبراهيم:46).

يمثل أسلوب النداء عنصراً أساسياً في بناء قصة إبراهيم – عليه السلام – مع أبيه الكافر الطاغي الجاحد. وفي الإمكان تناول أسلوب النداء بالدرس والتحليل من جوانب عدة من أهمها:

النداء بصيغة (يا أبتِ):

ورد النداء بهذه الصيغة أربع مرات، وبالعودة إلى حقيقة النداء وعناصره، يتسنى للباحث أن يحللها على النحو الآتي:

المنادي : نبي الله إبراهيم – عليه السلام–.

يا: أداة نداء وتنبيه للبعيد، وقد خرجت أداة النداء عن معناها الأصلي إلى معان أخرى، إذ استخدمت لنداء القريب، فإبراهيم – عليه السلام – ينادي أباه وهو قريب بأداة للبعيد (يا)؛ وذلك احتراماً له، وإعلاءً لشأنه في نفسه.

المنادَى: أبتِ: والد سيدنا إبراهيم – عليه السلام – وأصله يا أبي، حذفت ياء المتكلم، وعوضت بتاء التأنيث المبنية على الكسر[37].

مضمون النداء ومحتواه: رغبة إبراهيم في استمالة قلب أبيه إليه، ليصبح مؤمناً، ويترك عبادة الشرك والأوثان، انطلاقاً من صلة القرابة والرحم بينهما.

وقد خرج النداء عن معناه الحقيقي، وهو التنبيه والإصغاء إلى معانٍ جديدة، هي: التحبب، والتحنن والاستعطاف، وتتجلى هذه المعاني في نداء الأنبياء أقوامهم؛ لإظهار مدى حنوهم عليهم، واستمالتهم لهم، وتحببهم فيما يدعون إليه، ونداء إبراهيم لأبيه صورة واضحة في ذلك أتم الوضوح.

ب ـ التدرج في أسلوب النداء :

من يتأمل مضمون النداء ومحتواه، يجد أن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – قد سلك طريقاً طريفاً في دعوته لأبيه إلى التوحيد، فهو لم يَدعُ أباه إلى الدخول في الإيمان بالله، ونبذ الشرك دفعة واحدة؛ وإنما تَدرَّجَ معه في هذا الموضوع، واتَّبَعَ أسلوباً قائماً على الحجة القاطعة، والبرهان الساطع المبني على أدب المخاطبة، فهو يبدأ خطابه منادياً أباه بقوله:(يا أبتِ)، فالعبارة تحمل دلالات مُوحية بالحب، والحنان، والعطف، مستثيراً فيه رابطة الأبوّة، ثمَّ تدرّج في إبطال عقيدة الشرك، ثم خاطبه بكل تواضعٍ ورفقٍ.

إن خوف إبراهيم –على أبيه – دَفَعَه إلى جعله يذكُر له سوء العاقبة، والخوف عليه من العذاب، وقد أضفى أسلوب النداء على خطاب إبراهيم – عليه السلام – مسحة صادقة من الحنو، والحب، والعطف.

ولم يقف هذا التدرج عند توظيف العقل والمنطق؛ وإنما استخدم عنصر العاطفة والوجدان، إذ اجتهد إبراهيم – عليه السلام – في استمالة قلب أبيه إليه أولاً، والهيمنة عليه عاطفياً قبل البدء بدعوته إلى طريق الهداية.

ويشير بعض المفسرين إلى أن (آزر) الذي خاطبه إبراهيم – عليه السلام – لم يكن أباه في الواقع[38]. وهنا تبرز الحاجة إلى استمالته عاطفياً، وتذكيره بصلة القرابة والرحم التي بينهما، والتي حاول إبراهيم – عليه السلام – توظيفها، للضغط على أبيه قبل عرض أفكاره عليه[39].

ج ـ التكرار في صيغة أسلوب النداء :

يمثل التكرار سمة أسلوبية عامة في القرآن الكريم، وهو يُعَرَّف بأنه: تكرار كلمة أو لفظ أكثر من مرة في سياق واحد لنكتة ما، وذلك إما للتوكيد ، أو لزيادة التنبيه أو للتهويل ، أو للتعظيم)[40]

يشكل أسلوب التكرار من بين الأساليب البلاغية مكوناً من المكونات المهمة التي وظفها النّص القرآني، وشغل حيزاً كبيراً في قصة إبراهيم – عليه السلام – ؛ بقصد التأثير في النفوس، وإقناع العقول، لأنه قد يتأثر بالتكرار مَن لا يتأثر بالمرة الواحدة [41].

تكرر لفظ يا (أبت) أربع مرات في الآيات السابقة، إذ جاء التكرار في هذه القصة؛ ليرسخ عقيدة التوحيد في عقل أبيه، إذ كان من العجب العاجب عنده أن يقال له إنّ الله واحد.

إن مجئ التكرار في صورة تكرار البدايات أي تكرار (يا أبتِ) أربع مرات في بداية كل آية، قد ولّد إيقاعاً موسيقياً، وغدا عنصراً مهماً من عناصر التشكيل الجمالي والبنائي في الأسلوب القرآني، فالتكرار صنو قوانين الإيقاع في نظام، وتساوٍ، وتوازن، وتلاحم [42].

د ـ الحوار التصويري:

وظف الخطاب القرآني في قصة إبراهيم – عليه السلام – أسلوب الحوار التصويري الذي دار بين إبراهيم وأبيه.

ويعد الحوار الخارجي ملمحاً بارزاً من ملامح الصراع بين الحق والباطل، صراع أهل الإيمان مع أهل الكفر، صراع الابن البارّ المؤمن مع الوالد الضال المشرك.

ومن سمات هذا الحوار أنه جاء في لهجة حانية بارّة أبداها النبي إبراهيم – عليه السلام – لأبيه (آزر) المعاند في غلظة وقوة . وهو حوار مشفوع بالحجج، والأدلة والبراهين من جهة ، وبالترغيب والترهيب، ليحرك وجدان أبيه من جهة ثانية، وبالتحبب من جهة ثالثة، على حين جاء حوار أبيه مع ابنه حواراً يحمل الوعيد، والتهديد، والنبذ الشديدين.

هـ- دور النداء في رسم شخصيات القصة:

نهض النداء في قصة إبراهيم – عليه السلام – بدور فاعل في رسم ملامح شخصية كلٍ من إبراهيم – عليه السلام – وأبيه (آزر).

تجسدت أبعاد صورة إبراهيم – عليه السلام – من خلال الجمل الندائية القرآنية، فبدت واضحة القسمات،محددة المعالم والأبعاد: البعد النفسي، والبعد التربوي، الذي يتمثل فيما أظهره إبراهيم– عليه السلام – تجاه والده من أدب جم، ومعاملة حسنة، فهو يطلب له الرحمة، ويبدي الشعور بالخوف والإشفاق على مصيره، ويبرز التلطف معه، إذ يبدو إبراهيم – عليه السلام – دائماً في جميع مواقفه في آدابه، وحلمه، وسعة صدره يتصف بالحلم والأناة.

أما ملامح شخصية أبيه (آزر)، فإنها تتصف بشخصية واحد من أولئك الغلاظ الجفاة، الذين أضلهم الشرك والكبر. إنه إنسان غليظ، جاف، يستنكر هداية ابنه له، ويغلظ له في القول، يهدده بقوة وعنف، إنه مُصرٌّ على الكفر والعناد، لا يقابل نداء ابنه الرقيق له، ناداه ابنه بأحب الصفات إليه (يا أبتِ)، فلم يناده أبوه: (يا ابني)، وإنما خاطبه باسمه (يا إبراهيم)، إن نداء الأنبياء والرسل من قبل الناس العاديين بأسمائهم يعد من قبيل سوء الأدب، وعدم الاحترام.

ومن سمات شخصية إبراهيم – عليه السلام – الحُلُم، والأدب الجمّ، إنه لم يخرج عن طوره، ولم تفارقه طبيعته الودود، وإنما لزمه أدبه وحلمه، وقابل التهديد برحابة صدر وأناة، وقابل الوعيد بنفس هادئة مطمئنة، وأجاب أباه بما ينمُّ على برّه بوالده، مهما كان منهُ، قال مخاطباً أباه: ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا**﴾(مريم: 47).

أدى النداء في هذا الخطاب القرآني دوراً بنائياً، إذ كان المقصد منه التوسل المستعطف، وقد انعكس هذا الاستعطاف والتوسل في عناصر الآية بأسرها: مفردات وتراكيب، ذلك أن السياق يشتمل على كثير من الظواهر والأمارات الدالة على تلطف سيدنا إبراهيم – عليه السلام– وتأدبه مع أبيه، وحرصه البالغ على هدايته.

ومن تلك الظواهر إلى جانب بدء الآية بالنداء عدم تصريح سيدنا إبراهيم – عليه السلام– بلحوق العذاب بأبيه، فلم يقل مثلا : ينزل بك العذاب، ولكنه قال: (إني أخاف)، فضلاً عن حسن انتقاء الألفاظ الموحية، إذ آثر الخطاب القرآني الفعل (يَمَسك) دون (نصيبك)، والمس أقل خطراً من الإصابة، وذكرُ إبراهيم لربه باسم (الرحمن) الذي يشي بصفة الرحمة، وهذا ما عبر عنه استعمال النداء الذي جسد إشفاق سيدنا إبراهيم – عليه السلام– على أبيه، وشدة حرصه على هدايته[43].

المحور الرابع: أسلوب النداء في قصة موسى – عليه السلام –

ورد النداء في قصة موسى – عليه السلام – من خلال قوله تعالى:﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۞ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۞ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا**﴾(مريم: 52 ، 53).

لم يأتِ أسلوب النداء في هذه الآيات في صورة نداء مباشر؛ وإنما جاء في أسلوب غير مباشر، لم يستكمل عناصره الأساسية؛ الأمر الذي جعل فهمه يتأتى من خلال السياق، أو المقام الذي ورد فيه، وهو الجملة الندائية القرآنية (وناديناه)، وفي هذا تشويق وإثارة للمتلقي على تتبع هذا الأسلوب، وتحليل عناصره، ويحقق له التوصل بنفسه إلى عناصر هذا الأسلوب؛ الأمر الذي يحدث الإثارة النفسية، والمتعة الذهنية، وقد صيغ النداء في أسلوب موجز موحٍ مترع بالدلالات الإيحائية المتنوعة.

بيد أنه بالرجوع إلى النصوص القرآنية المتوافرة في السور القرآنية الأخرى المتشابهة، يتبين للمتلقي مضمون النداء ومحتواه، والظروف المحيطة به، قال تعالى:

﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ۞ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ۞ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۞**﴾(طه:11– 14).

وقوله تعالى: ﴿**لَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (النمل : 8 – 9).

يتضح من النصوص القرآنية السابقة بصورة واضحة وجلية ما يأتي:

أ. إن النداء المذكور في سورة مريم – عليها السلام – هو نفسه النداء المذكور في سور القرآن الكريم مثل: سورة طه وسورة النمل؛ الأمر الذي يشي بوحدة البناء المضمون والفني بين القصة الواحدة في القرآن الكريم.

في أول لقاء لموسى – عليه السلام – بالوحي المنطلق من **الله**، في ذلك الجبل الذي كلمه **الله** فيه، في الجانب الأيمن منه، ناداه المولى قائلاً له: يا موسى.

ب. وناديناه، فالنداء: هو الكلام الدال على طلب الإقبال والإصغاء والانتباه، وهذا النداء هو الكلام الموجه إلى موسى– عليه السلام – من جانب **الله** تعالى الذي قربه: ومعنى هذا التقريب: أنه أسمعه كلامه، قال ابن عباس: أُدْني موسى – عليه السلام – من الملكوت، ورُفعت له الحجب، حتى سمع صريف الأقلام التي كتبت بها التوراة.[44].

ت. وقربناه: التقريب المعنوي هو رفع المكانة والمنزلة والقدر، فهو عند **الله** ذو منزلة سامية، ومكانة رفيعة، فهو تقريب كرامة واصطفاء، ويمكن الجمع بين التفسيرين: التفسير المادي، والتفسير المعنوي.

ث. نجيًّا: المناجاة هي: شُبّه الكلام الذي لم يكلم بمثله أحداً، ولا اطلَعَ عليه أحداً، والمناجاة أسلوب من أساليب الإيحاء بالقرب المعنوي من **الله**. فقد بين **الله** تعالى أنه كما ناداه ناجاه أيضاً، فالنداء مخاطبة الأبعد، والمناجاة مخاطبة الأقرب[45].

لقد بدأ لقاء نبي الله موسى – كليم الله – بربه بأن عَرَّفه المولى أولاً بنفسه بكلمة التوحيد، وبحقيقة التوحيد، وذلك في قوله تعالى:﴿يَا مُوسَى، إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (النمل :9).

وفي قوله تعالى:﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه:14) .

وفي قوله تعالى:﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص: 30).

إن هذه الآيات بأسرها صريحةٌ في أنَّ الله هو المتكلم بذلك، صراحةً لا تحتمل غير ذلك، كما هو معلوم عند مَنْ له أدنى معرفة بدين الإسلام، وفي هذه الآيات السابقة جميعها يبين الله مكانة نبي الله موسى– عليه السلام –، ومنزلته السامية، ومقامه عند مولاه الخالق .

ومن ثمَّ أخبر المولى – عزَّ وجلَّ – نبيَّ الله موسى – عليه السلام – باصطفائه نبياً ورسولاً، قال تعالى:﴿إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي﴾ (الأعراف: 144).

ثم أخبره المولى – عزَّ وجلَّ – وأخاه هارون أنهما مكلفان بالذهاب إلى فرعون وقومه؛ لأنهم خارجون عن سبيل الله؛ ليدعوهم إلى الإيمان بالله، وترك الشرك.

يقول تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: 43 ، 44).

أسهمت أصوات الحركات بدور كبير في تجسيد عظمة الخالق، وإظهار قدرته التي لا تحدُّ، كما في قوله تعالى:﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا۞وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾،(مريم: 52، 53)؛ والأمرُ الذي زاد في الآية من درجة التعظيم مجيءُ ضمير الجماعة للمتكلم الذي يعود على الله سبحانه وتعالى؛ حيث يزداد الإحساس بعظمة المتكلم؛ بسبب صوت نون الجماعة المقترنة بصوت الفتحة الطويلة في كلمة (نادينا)، فقد منحته أصوات المد هيبة ووقاراً، وزادته عظمة وجلالاً، بالإضافة إلى التكلم بصيغة الجمع في (قربناه) الدالة علي التعظيم.

منح صوت النون الذي تردد غير مرة في كلمات النداء: (ناديناه، من، جانب، الأيمن، قربناه ، نجيا، وَوَهَبْنَا، مِنْ، رَحْمَتِنَا، هَارُونَ، نَبِيًّا) النصَّ القرآنيَّ سمةَ الوضوح السمعي المميز؛ فزادها وضوحاً ورنيناً، مع تردد موسيقي محبب في هذا الصوت، وقد نشأ عن تردد هذا الصوت نوع من الموسيقى ترتاح إليه الأذن، وتميل إليه، ويلحظ المتلقي أن للآية إيقاعاً حاسماً جلياً يتواءم مع جلاء معناها، ففي إيقاع النون وانسجامها مع سائر الأصوات إيقاع حانٍ يتواءم مع الحنّو الذي أغدقه – عزَّ وجلَّ – على النبي موسى – عليه السلام – الكليم الذي أراد منه مولاه أن يكون مبشراً ونذيراً.

أسهم أسلوب النداء في رسم ملامح شخصية موسى وإبرازها، فهو نبي ورسول أخلص العبادة والطاعة لله – عزَّ وجلَّ –، وكان مخلصاً في أداء أمانة الله تعالى، وكان رسولاً نبياً، رفيع القدر عالي المكانة والمنزلة، أكرمه الله حين (اصطفاه لكلامه مباشرة قبل أن يرسل إليه الملك بالوحي، فكان مخلَصاً بذلك، أي: مُصطفىً؛ لأن ذلك ميزتيه، قال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه :41))[46]، واصْطَنَعْتُكَ: أي: اصطفيتك واجتبيتك رسولاً لنفسي، أي: كما أريد وأشاء.

ثمة جملة من خصائص أسلوب النداء تبدت جلية واضحة في سورة مريم يجدر ذكرها؛ لأنها تضيء جوانب من ملامح هذا الأسلوب في هذه السورة المباركة.

أ. النّداء كغيره من أساليب الإنشاء الأخرى قد يخرج عن معناه الأصلي ألا وهو التنبيه، وطلب الإصغاء إلى معانٍ أخرى تستفاد من سياق الكلام، وقرائن الأحوال: كالإغراء، والتحسر والزجر، وقد يتجاوز هذه المعاني أيضاً إلى معانٍ أخرى: كالاستغاثة، والنّدبة، والاختصاص وغيرها[47].

ب. من يمعن النظر في أسلوب النداء في هذه السورة الكريمة، يدرك أن ثمة سمة أسلوبية بارزة تهيمن على الأسلوب، ألا وهي سمة التنوع، والتغاير، والتلوين، فقد تنوعت أنواعه، وتعددت أغراضه التي ينطوي عليها، فهناك نداء الرب لعبده مثل قوله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾(سورة مريم:7)، وقوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾(سورة مريم:12).

وثمة دعاء العبد لخالقه نحو دعاء زكريا –عليه السلام– ربه بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (سورة مريم: 4).

وهناك نداء العبد لمثله من المخلوقات نحو دعاء إبراهيم لأبيه في قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (سورة مريم:43).

أما مواضع استخدام النداء، فتنوعت في الجملة الندائية القرآنية: في بدايات الآيات، وفي نهاياتها، وفي تضاعيفها أو أوساطها .

فقد يتقدم النداء في بدايات الآيات نحو قوله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾،(مريم: 7)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (مريم: 45).

وهذا التقديم للمنادى يشي باهتمام المخاطب به وعنايته بأنه يُصْغِي إلى ما سيوجه إليه من خطاب، وأنه يعيره سمعه وعنايته.

ففي قوله تعالى:﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ قدَّم الدعاء أملاً في الإجابة، وطمعاً في الرحمة، وتصويراً لأشواق النفس؛ حتى تضع آمالها على باب الكريم المنان.

وقد يتأخر النداء، فيأتي في نهاية الآيات نحو قوله تعالى: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (سورة مريم:46)، وتأخير المنادى في الجملة الندائية السابقة يكشف عن عدم اهتمام والد إبراهيم– عليه السلام– بنصائح ابنه، وأنه لن يصغي إليه، ولن يعير دعوته، اي اهتمام وعناية.

أما ورود النداء في تضاعيف الآيات، أو في أثنائها، فيمكن أن يلتقيه القارئ في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾(سورة مريم:4)، وقوله تعالى:﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾(سورة مريم:6).

وقد جاء النداء في مثل هذا الموضع؛ ليحقق أغراضاً بلاغية مثل: الاختصاص، والحفاظ على الايقاع النغمي في النص القرآني.

إنّ مثل هذا التنوع والتغاير في صورة المخاطَب، وفي موضع النداء من الجملة يزيد النص القرآني الكريم حيويةً وحياةً وتدفقاً، ويؤدي بلا شك دوره في إثراء الدلالة، وتعميق المعنى، ودفع الملل والرتابة عن المتلقين، فتنوع المخاطب، وتنوع موقع الجملة الندائية في السياق يأتي وفقاً لتنوع الموضوع، والجو العام في السورة، ويشي بأبعاد شخصية المنادي وملامحه.

ت. جاء أسلوب النداء متناسقاً مع البناء الفني للسورة من حيث المضامين الفكرية والمشاعر والأحاسيس، إذ يلف السورة وشاح شفيف من مشاعر الرحمة والود والمحبة، فضلاً عن التناسق في طبيعة العلاقة بين المخاطبين من جهة، والتناسق التكاملي في بناء الأساليب التعبيرية الفنية في السورة من جهة أخرى، وثمة تناسق آخر يتمثل في المساحة التي شغلها النداء، فقد شغل النداء حيزاً واسعاً في السورة الكريمة، وذلك يحقق توازناً حقيقياً في البنية الفنية للسورة، وأثراً عميقاً في نفوس المتلقين.

الخاتمة:

وبعد، فإنه يمكن للباحث أن يسجل أهم نتائج الدراسة على الوجه الآتي:

1. تبيّن من الدراسة أن أسلوب النداء يشكل ظاهره أسلوبية لغوية، وهو من أكثر الأساليب تداولاً على الألسنة، ويشكل حيزاً واسعاً في النص القرآني في سورة مريم – عليها السلام–.

2. يغلب على بناء الجملة الندائية إسقاط حرف النداء؛ لشعور المنادِي بقرب المنادَى منه، وتعظيما له.

3. تميزت أساليب النداء وطرقه في القصة القرآنية الواحدة بملامح وسمات تختلف عنها في قصة قرآنية أخرى تبعاً للمضامين التي يحملها النداء، فنداء المولى – عز وجل – عبده زكريا – عليه السلام – الذي يحمل صورة من صور رعاية الله وعطفه على نبي الله زكريا – عليه السلام – ويزخر بمحبته، والسرعة في استجابة دعائه، ويوحي بتعاطف كبير معه، وذلك في قوله تعالى: – ﴿**يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**﴾، يختلف عن نداء المولى – سبحانه وتعالى – لسيدنا يحيي – عليه السلام – الذي يتصف إلى حد ما بالقوة والحزم، وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**﴾؛ ذلك أن دين الله لا يحمله إلا ذوو العزم والحزم والقوة، أما النداء في قصة مريم – عليها السلام–، فإنه يتسم بهيمنة نغمة شفيفة من الحزن والأسى والتمني تغلف الخطاب القرآني، وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا**﴾.

4. بيّنت الدراسة الوظيفة الفاعلة لأسلوب النداء في الكشف عن أسرار الخطاب القرآني وإحكام بناء القصص القرآنية، وفي نقل المضامين الفكرية، والتأثيرات الشعورية، والدلالات النفسية الهادفة.

5. يعد التنوع والتغاير سمة واضحة في أسلوب النداء بعامة، وفي موقع الجملة الندائية في السياق العام للسورة، وقد جاء أسلوب النداء متعاوناً ومنسجماً مع سائر وسائل التعبير القرآنية في البناء المعماري الفني للسورة.

6. اتسمت ألفاظ السورة بالدقة في الاختيار، وبسعة الدلالات وتنوعها، وبإثارة الخيال وبقوة التأثير في المتلقين، وأسهم تكرار أسلوب النداء في تأدية المعاني، وإشاعة ظلال الرحمة والعطاء في جو السورة، وتقوية المعنى وتوكيده، وتأكيد بعض العقائد الإسلامية.

الهوامش:

1. المستوى البلاغي في سورة مريم، فيصل حسين غوادره، مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، مجلد(16)، عدد (2) سنة 2008.
2. مستويات أسلوبية في سورة مريم، فيصل حسين غوادره، مجلة جامعة الشارقة للعلوم مجلد(8) عدد (1) سنة 2008.
3. الدلالة النفسية في سورة مريم، عقيل عكموش، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مجلد 6، العددان(3 – 4)، سنة 2007.
4. سورة مريم دراسة أسلوبية، معين رفيق أحمد صالح، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، رسالة ماجستير (غير منشورة)، 2003 .
5. في البلاغة العربية، علم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار النهضة، القاهرة، ص 114 ، 115.
6. راجع: من أساليب القرآن، إبراهيم السامرائي ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1 ، 1983 ، ص 41.
7. النداء في اللغة والقرآن، أحمد محمد فارس، دار الكتب اللبناني للطباعة والنشر، 1989، ص 10 .
8. البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1996، 1 / 244.
9. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني الناشر، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة الطبعة: الأولى،1997، 2/ 15.
10. من بلاغة القرآن، المعاني، البيان، البديع، محمد علوان، ونعمان علوان،2، الدار العربية للنشر والتوزيع(د.ت).ص 70 .
11. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت 1995، ج 7 : 308 .
12. الدلالة النفسية في سورة مريم ،عقيل عكموش عبد، ص 76 .
13. الميزان في تفسير القران، محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط1، 1997 م، ج 7 / 14 .
14. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري جار الله ، دار الكتاب العربي ، بيروت، الطبعة الثالثة ، 1407 هـ، ص 303 .
15. الدلالة النفسية في سورة مريم، عقيل عكموش ص 77 .
16. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط8 ، 1979 م ج 4 / 2304 .
17. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ج17 / 55 ، 66 .
18. لسان العربي، ابن منظور ، مادة ربب.
19. الدلالة النفسية في سورة مريم ، عقيل عكموش ص 77 .
20. دراسة أسلوبية في سورة مريم، معين رجب صالح ص156.

21. جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2000 م. ج 17 / 187.
22. السابق: ج 17 / 186.
23. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور17 : 65
24. الكشاف، الزمخشري، ص 226.
25. في ظلال القران، سيد قطب4 : 2304.
26. انظر: المستوى البلاغي. فيصل غوادره ص 666 .
27. ابن كثير2/ 428 .
28. الجامع في أحكام القرآن، القرطبي: 11 / 73 .
29. السابق: ج 14 / 277 .
30. المستوى البلاغي في سورة مريم، فيصل غوادرة ص 665 .
31. السابق، ص 632 .
32. الجامع في أحكام القرآن، القرطبي: 11 / 73 .
33. انظر: التصوير الفني في القران، سيد قطب ص 160
34. انظر المصدر السابق: ص 161 ، 162.
35. الطبري 16/77 .
36. تفسير التحرير والتنوير 16 / 123.

الجامع في اللغة العربية، علي رضا، دار الفكر اللبنانية، 2 / 134 .

تفسير التحرير والتنوير 16 / 123.

37. الجامع في اللغة العربية، علي رضا، دار الفكر اللبنانية، 2 / 134 .
38. الكشاف ، الزمخشري 3/ 18 ، 19 .
39. الدلالة النفسية في سورة مريم ، عقيل عكموش ص 86
40. أنوار الربيع في أنوار البديع ، ابن معصوم المدني، تحقيق شاكر هادي شكر ي ، النجف الأشرف : مطبعة النعمان1938 ، 5 / 34 – 35 . وانظر: إعادة اللفظ بنفسه، أو العبارة ذاتها في السياق نفسه.
41. السابق: 3 / 18 .
42. للبنية الفنية في سورة (مريم)، محمد الحسناوي. http://www.oda-basham.net
43. علم المعاني في الموروث البلاغي، تأصيل وتقييم، حسن طبل، ط1، المنصورة: مكتبة الإيمان. 1999 ص171، 172.
44. تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي دار إحياء التراث العربي، بيروت . ط 4، 1990،6/199.
45. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق، يوسف مرعشلي وآخرين، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان. 2 / 202 .
46. التحرير والتنوير 17 / 74 .
47. انظر: في علم المعاني: عبد العزيز عتيق، ص125.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1. ابن حجر، العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، دار الكتب العلمية،1995م.
2. أبو حيان، الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ط 4، بيروت : دار إحياء التراث العربي.1990م .
3. رضا، علي، المرجع في اللغة العربية – نحوها وصرفها: الطبعة الاولى، بيروت: دار الفكر، 1996 م.
4. الزركشي، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، (تحقيق يوسف مرعشلي وآخرين)، بيروت: دار المعرفة.
5. الزمخشري ، جار الله الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الكتاب العربي، 1407 هـ.
6. السامرائي، إبراهيم، من أساليب القرآن، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة،2008 م.
7. الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، طبعة أولى، القاهرة، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع،1997 م.
8. صالح، معين رفيق، دراسة أسلوبية في سورة مريم، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2003م
9. الطبري، أبو جعفر، جامع البيان في تأويل القرآن، (تحقيق أحمد محمد شاكر)، ط أولى، بيروت، مؤسسة الرسالة م 2000 م.
10. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآنان، ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط1، 1997 م .
11. طبل، حسن، علم المعاني في الموروث البلاغي، تأصيل وتقييم، ط 1، المنصورة م مكتبة الإيمان م 1999 م.
12. ابن عاشور، الطاهر تفسير التحرير والتنوير، تونس ، الدار التونسية ،1984م .
13. عتيق، عبد العزيز، في البلاغة العربية، علم المعاني، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع. 2009 م .
14. علوان، محمد، وعلوان، نعمان، من بلاغة القرآن معاني – البيان – البديع، الطبعة الثانية، القاهرة، الدار العربية للنشر والتوزيع، (ب. د. ت).
15. عكموش، عقيل، الدلالة النفسية في سورة مريم، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية،م 6 (3 ،4)، 2007 م.
16. غوادره فيصل حسين، المستوى البلاغي في سورة مريم، مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، 16(2) ،2008 م.
17. غوادره، فيصل حسين، مستويات أسلوبية في سورة مريم، مجلة جامعة الشارقة للعلوم، 8 (1) 2008 م.
18. فارس، أحمد محمد، النداء في اللغة والقرآن ،بيروت: دار الكتب اللبناني

للطباعة والنشر، 1989 م.

19. القرطبي، محمد بن أحمد ، الجامع لأحكام القرآن، تقديم، خليل محيي الدين الميس، وضبط مراجعه صدقي جميل العطار،

20. وخرج أحاديثه عرفات العشّا، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر،1954 م.

21. قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط8 ، بيروت، دار الشروق، 1979 م.

22. قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، ط 9، القاهرة. دار المعارف، 1980م.

23. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق حامد الطاهر، ط 1، القاهرة، دار الفجر للتراث. 2002م .

24. ابن معصوم، المدني، أنوار الربيع في أنوار البديع، (تحقيق شاكر هادي شكري) : النجف الأشرف، مطبعة النعمان،1938 م.

25. ابن منظور، لسان العرب ، الطبعة الثالثة، بيروت، دار صادر ، 1968 م .

26. الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دمشق، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.،1996 م.

27. الهاشمي، أحمد السيد، جواهر البلاغة، طبعة12، بيروت، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، (ب . د. ت).